بسم الله الرحمن الرحيم

و الحمد لله حمداً كثيراً طيباً دائماً و الصلاة و السلام على نبي الهدى و إمام الرحمة و سيد المرسلين و على آله هداة الخلق أجمعين

و بعد..

فهذه الورقة تشتمل على مقدمة تُلمح إلى نقطتين:

- **النقطة الأولى**: الإلماح إلى الوضع الإسلامي في نهاية القرن الأول (عصر الإمام الصادق عليه السلام).
- **النقطة الثانية**: الإشارة الإجمالية إلى العوامل المؤدية إلى التنوع المذهبي.

و بعد المقدمة الدخول في صلب الموضوع و هو منهج الإمام الصادق عليه السلام في التعامل مع التنوع و الخلاف المذهبي.

المقدمة:

- **النقطة الأولى**: تميز عصر إمامنا الصادق عليه السلام بأهم ميزة و هي الانفتاح الثقافي و العلمي و تنوع الاتجاهات الفكرية و المذهبية، يقول الشيخ محمد حسن المظفر رحمه الله:

(كانت أيام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أيام نِحَل ومذاهب، وآراء وأهواء، وكلام وبحث...)[1].

و قد بلغت في عصره عليه السلام إلى فرق: زيدية، و خوارج، و مرجئة، و قدرية، و أشاعرة، و معتزلة، و مدارس كمدرسة الرأي و مدرسة الحديث، و بحسب الاتجاهات الروحية: الاتجاه الصوفي المعروف و الزهاد.

و في ظل هذا التعدد المذهبي و الفكري هناك من يضيق به ذلك، لضيق أفقه فينتج عن ذلك تحول الخلاف إلى صراعات مذهبية و حالة من الاحتراب في ضمن الدائرة الواحدة، و قد حدثنا التاريخ عن صور مؤلمة عن حالات هذا الصراع من المجاعة و القتل في بغداد عاصمة الدولة الإسلامية، إلى درجة أن حيّاً من أحياء بغداد مورس عليه الحصار إلى درجة أن الناس أكلوا لحم الكلاب و القطط كما جاء في كتاب شذرات الذهب و غيره.

فعندما يتحول الخلاف المذهبي إلى حالة من العمل على اثبات الوجود و نفي وجود الآخر، فهذا هو الاختلاف المذموم، و الاختلاف الذي يهدر الطاقات و يشتت الأمة و يجعلها فريسة لأعدائها، فيعيقها عن التقدم و يكون عاملاً في تأخرها، أما من يمتلك الأفق الواسع و يمتلك النظرة الإيجابية للأشياء فهو يستطيع أن يحول الأمر السلبي إلى إيجابي، و يكون همه إثبات الحق و جمع الأمة و هدايتها و لم شملها و عدم السماح لتحول الخلافات المذهبية إلى ميدان صراع و احتراب.

---

(١) الإمام الصادق عليه السلام - الشيخ محمد حسن المظفر – ج١، ص٣٩.

جاء شخص إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و هو نصراني فقال له: يا أبا الحسن سرعان ما مات نبيكم حتى اختلفتم، فقال له الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: نحن لم نختلف على نبينا، إنما اختلفنا عن نبينا.

و معناه أن هذا الخلاف هو خلاف في الفهم و الاجتهاد و ليس الاختلاف على أصل الشيء و أساسه، و كم من الفرق و البون الشاسع بين الحالتين، و قد حدثنا التاريخ عن بعض المتصيدين الذين جاءوا إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - كما في قصة أبي سفيان – أنه قال له: لو شئت لأملأنها خيلاً و رجالاً، و لكن أمير المؤمنين عليه السلام لم و لا يرى لنفسه أي مبرر لإضعاف الأمة الإسلامية، و أجاب ذلك الشخص بالرفض الشديد القارع، ناهراً إياه نهراً شديداً و هو الحامل لذلك الشعار: لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين و لم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة.

و على هذا المنهج و الحرص على كيان الأمة و وحدتها سار أهل البيت عليهم السلام من خلال التأكيد و الممارسة على ضرورة الحفاظ على وحدة الأمة و عدم تحويل الخلاف إلى عامل صراع و احتراب، و أسسوا من خلال ثقافة التعايش و دعوتهم أتباعهم على تجسيد تلك القواعد لجمع الأمة و الحفاظ على النسيج العام و الوحدة العامة للمسلمين، و سوف نشير إليها بعد النقطة الثانية من المقدمة.

- **النقطة الثانية من المقدمة**: التعدد و التنوع المذهبي الذي شهده عصر الصادق عليه السلام يرجع في عوامله إلى واقع الأمة القائم آنذاك، و ليس من الصعب على من يقرأ تاريخ الأمة أن يقف على جملة من تلك العوامل و أهمها:

١. العامل التاريخي للخلافة و نظام الغلبة.

٢. بروز الاتجاهات الكلامية و الفلسفية المتأثرة بفلسفة اليونان.

٣. التطرف الديني.

و مهما يكن من أمر في تحليل هذه العوامل و استغلالها و بسط الحديث حولها إلا أنها قد تم استغلالها و توظيفها من قبل الذهنيات الضيقة أو المصالح الذاتية.

إلا أن أئمة أهل البيت عليهم السلام و من خلال مشروعهم المبارك حاولوا جهدهم أن لا تعمل هذه العوامل أثرها في وحدة الأمة و التقليل من مضعفاتها على واقع الأمة، و هذا ما نحاول التعرف عليه في عنوان الورقة:

«منهج الإمام الصادق عليه السلام في التعامل مع الاختلاف المذهبي و دوره في الوحدة الإسلامية»

ألمحت النقطة الأولى في المقدمة إلى الميزة التي تميز بها عصر الإمام الصادق عليه السلام و هي بروز الأفكار و التوجهات المختلفة و المذاهب و الفرق، و قد تعامل الإمام الصادق عليه السلام مع هذه الظاهرة من خلال المنهج الإلهي القائم على أساس محكم و متين و قاعدة رصينة

و هي الحكمة و الموعظة الحسنة، و الذي فصله منهج الإمام عليه السلام من خلال ثقافة واضحة المعالم و الأسلوب، فلم ينطلق الإمام عليه السلام من ضيق أفق بالآخرين مهما كان الاختلاف بينه و بينهم، بل تعامل الإمام عليه السلام مع هذا الاختلاف و الواقع القائم من خلال هذه المعالم و القواعد:

❖ **القاعدة الأولى: هامش الاختلاف و التعدد.**

من جملة الأسس التي تعامل من خلالها الإمام الصادق عليه السلام هي نظرية الإيمان بوجود هامش للاختلاف و التعدد بين المسلمين يستوعب الاختلاف في الفهم و الاجتهاد و المواقف، مع قطع النظر عن مدى صحة هذه الاجتهادات و المواقف و مدى انسجامها مع الحق و الصواب.

و نظرةٌ في الأسباب الرئيسية لما شهده تاريخنا الإسلامي من احتدام و صراع حاد سفكت فيه الدماء و شرد فيه الآلاف من أبناء هذه الجماعة أو تلك، هو عدم وجود مثل هذا الهامش المعترف فيه «واقعياً»، و إن كانت بعض منطلقاته أحياناً بعيدة عن الحق أو الصواب مثل هذا الاعتراف بهذا الهامش من الاختلاف و التعدد و استعيابه هو الذي يصون الأمة من التمزق و الصراع.

و في مقابله ثقافة الإلغاء و عدم الاعتراف و الذي يمثل ضغطاً يؤدي متفجرات تنسف هذه الوحدة أو تمزقها أو تشوه صورتها، و معنى هامش الاعتراف بالتعددية المذهبية لا يعني تصويب آرائها و مبتنياتها و عقيدتها، بل إنما يعني أن هناك رأي و فكر آخر يستمع

إليه و إلى أدلته و حججه و أن هناك آراء أخرى لا بد من الاستماع إليها، و هذا ما عكسته حوارات و مناظرات الإمام عليه السلام لجميع المذاهب و الأفكار و الاتجاهات، فكانت المناظرات و تعليم الإمام أصحابه لفن المناظرة بل تكوين شريحة من أصحابه مختصين بفن المناظرة دليل واضح و خير شاهد على إقرار الأئمة بهذا الهامش من التعددية و التنوع المذهبي.

و نجد اعترافاً من بعض أقطاب هذه الاتجاهات بما يتمتع به الإمام عليه السلام من سعة صدر و حسن استماع لفكر الآخر و رأيه و حجته، بنحو لم يكن يطيقه بعض أصحاب الإمام عليه السلام و لا يتحمله، فيرد عليه أبو شاكر الديصاني: مه يا هذا إنا نسمع صاحبكم أشد من هذا فما كان يواجهنا إلا بالاستماع لكلامنا و نقضه.

❖ **القاعدة الثانية: إرساء قواعد التعايش بين أبناء المذاهب الإسلامية.**

اهتم أهل البيت عليهم السلام و الإمام الصادق عليه السلام بنشر و إرساء قواعد التعايش بين المسلمين فيما يتعلق بقضية الاختلافات المذهبية، و التي يكون لها انعكاسات و تأثيرات على المستوى الاجتماعي و السياسي، فقد أكد أئمة أهل البيت عليهم السلام و الإمام الصادق عليه السلام و دعى شيعته و مواليه إلى الالتزام بهذه القواعد و العمل بها، و قد انطلق الإمام الصادق عليه السلام في بيان هذه القواعد من أفكار ثلاثة رئيسية:

- **الأولى**: أن المجتمع لا يستغني أفراده عن بعضهم البعض، و أن المجتمع من أجل تكامله يحتاج إلى التعاون مع بعضه البعض، و نفى فكرة العزلة و الانطواء أو التجزئة و الانقسام.

- **الثانية**: ضرورة شعور الإنسان بالمسؤولية تجاه المجتمع و وفاءه بالالتزامات الاجتماعية على المستوى القانوني و الاخلاقي و الروحي، هذه المسؤوليات التي يؤدي الالتزام بها إلى الحفاظ على وحدة المجتمع و تزيد من قوته و قدرته على مواجهة المشكلات.

- **الثالثة**: ضرورة المساهمة في تطوير المجتمع و تكامله من خلال التأثير إيجابياً عن طريق السلوك الأخلاقي الراقي و المعاملة الطيبة و القدوة و الأسوة الحسنة.

و نجد في أحاديث الإمام الصادق عليه السلام و سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام جذور و أصول هذه الأفكار، و هنا أشير إلى ثلاث نصوص معتبرة من حيث السند و واضحة الدلالة:

- **الرواية الأولى**: روى الكليني بسند صحيح عن أبي أسامة زيد الشحام قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام: (اقرأ على من ترى أنه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام، و أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله، أدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها براً أو فاجراً، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بأداء الخيط والمخيط، صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل: هذا

جعفري، فيسرني ذلك ويدخل علي منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل علي بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر، فوالله لحدثني أبي عليه السلام أن الرجل كان يكون في القبيلة من شيعه علي عليه السلام فيكون زينها آداهم للأمانة وأقضاهم للحقوق وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان إنه لآدانا للأمانة وأصدقنا للحديث)[٢].

- **الرواية الثانية**: روى الكليني بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت له: كيف ينبغي لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطائنا من الناس ممن ليسوا على أمرنا؟، قال عليه السلام: (تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون فوالله إنهم ليعودون مرضاهم ويشهدون جنائزهم ويقيمون الشهادة لهم وعليهم ويؤدون الأمانة إليهم)[٣].

- **الرواية الثالثة**: روى الكليني بسند صحيح عن مرازم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة وحضور الجنائز، إنه لابد لكم من الناس إن أحداً لا يستغني عن الناس حياته والناس لابد لبعضهم من بعض) [٤].

---

(٢) الكافي – الشيخ محمد بن يعقوب الكليني – ج٢، ص٦٣٦، ح٥، باب ما يجب من المعاشرة.
(٣) الكافي – الشيخ محمد بن يعقوب الكليني – ج٢، ص٦٣٦، ح٤، باب ما يجب من المعاشرة.
(٤) الكافي – الشيخ محمد بن يعقوب الكليني – ج٢، ص٦٣٥، ح١، باب ما يجب من المعاشرة.

❖ **القاعدة الثالثة**: مبدأ التقية أساس في حفظ التوازن بين انتماء الإنسان الخاص و بين الحفاظ على الكيان العام.

على الرغم من الخصوصيات التي يحملها مذهب أهل البيت و تميز أتباعهم عن غيرهم سواء على مستوى الأصول أو الفروع، فطبيعة الخصوصية تجعل أتباع المذهب اذا ما التزموا بخصوصياتهم يؤدي إلى تشكلهم في كيان خاص منعزل عن الكيان العام تماماً و هذا ما لا يرغب فيه أهل البيت عليهم السلام.

فهذه معادلة صعبة، حفظ أحدهما يؤدي إلى ذوبان الآخر و ضياعه، لكن ما يميز منهج الإمام الصادق من خلال تأكيده على مبدأ التقية بأشكال مختلفة على التزام أتباعه بمبدأ التقية و لعنه لمن لا يعمل بالتقية ونهيه عن إذاعة السر – و هو الخصوصية المذهبية – فقد جاء عنه في هذا السياق الكثير من الأحاديث:

فعن أبي عمر الأعجمي عن أبي عبد الله عليه السلام- في حديث - أنه قال : (لا دين لمن لا تقية له...)[٥] .

و في الكافي عن المعلى بن خنيس قال أبو عبد الله عليه السلام: (يا معلى اكتم أمرنا ولا تذعه، فإنه من كتم أمرنا ولم يذعه أعزه الله به في الدنيا وجعله نوراً بين عينيه في الآخرة، يقوده إلى الجنة، يا معلى من أذاع أمرنا ولم يكتمه أذله الله به في الدنيا ونزع النور من بين عينيه في الآخرة وجعله ظلمة تقوده إلى النار، يا معلى إن التقية من ديني ودين آبائي، ولا دين لمن

(٥) وسائل الشيعة – الحر العاملي – ج١٦، ص٢١٥، ح٣، باب ٢٥ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما.

لا تقية له، يا معلى إن الله يحب أن يعبد في السر كما يحب أن يعبد في العلانية، يا معلى إن المذيع لأمرنا كالجاحد له)[٦].

فهذا المنهج الصادقي أتقن هذه المعادلة الدقيقة و الصعبة و هي حفظ الخصوصية المذهبية التي تميز أتباع أهل البيت مع عدم انسلاخهم عن الهوية العامة و اعتزالهم للكيان العام و عدم التشكل في كيان خاص كسائر المذاهب أو الجماعات السرية، فهي معادلة دقيقة و مهمة أحسن أتقناها الإمام الصادق عليه السلام.

❖ **القاعدة الرابعة**: تبني القضايا الإسلامية الكبرى التي تجمع الكل و تكون مورداً لاتفاقهم و جعلها الهم العام دون القضايا الجزئية التي تكون مورداً للاختلاف و محلاً للنزاع، و هذا ما نجده جلياً في سيرة الأئمة من أمير المؤمنين عليه السلام إلى إمامنا الصادق عليه السلام و الذي جعل الدفاع عن قضية التوحيد و نبوة النبي صلى الله عليه وآله التي حاول الزنادقة و الملاحدة نقضهما و تمييعهما كعقيدة في قلوب المسلمين، سخر الإمام الصادق عليه السلام وقته و وظف أصحابه بل كون شريحة مختصة للدفاع عن التوحيد و أصول العقيدة و صحة الشريعة و سلامتها، فكان هذا الأمر محلاً لاجتماع الأمة على ذلك.

(٦) الكافي – الشيخ محمد بن يعقوب الكليني – ج٢، ص٢٢٣، ح٨، باب الكتمان.

و ختاماً فالإمام الصادق عليه السلام هو الحارس للشريعة و الحافظ لها و الفاهم لأسرارها و مقاصدها المهتم لتطبيقها، هو حجة الله الذي يجب الأخذ عنه و الانتهاء إلى قوله و عدم تجاوزه بحسب ما نعتقده نحن أتباع أهل البيت، فمن الواجب علينا أن نحول تلك السيرة العطرة إلى واقع متحرك قائم من خلال اقتدائنا بأفعاله و سيرته و العمل وفق نهجه و تحري توجيهاته و ارشاداته في جميع المجالات و الأصعدة و خصوصاً على صعيد من نختلف معهم و بهذا يكون الاحتفاء بذكراه ارضاءً لقلبه الطاهر.

صلوات الله و سلامه عليك يا أبا عبد الله يوم ولدت و يوم استشهدت و يوم تبعث حياً.

حرره العبد الفقير

محمود بن الحاج حسن آل الشيخ العالي